شيء من حتى

عدلي الهواري ❖

دخلتْ شابّةٌ مبنى دائرة جوازات السفر، واتّجهتْ إلى إحدى نوافذ استقبال مقدِّمي الطلبات. فَتحتْ شنطةً وأَخرجتْ منها أوراقًا، أُرفقتْ مع بعضها صورٌ ملوّنة. قَدّمت الأوراقَ إلى الموظّف، فبدأ يقلّبها ليتأكّد من اكتمالها، ثم بدأ يراجع المعلومات الواردة في الطلب ليتيقّنَ من وضوحها وتمامها. وما لبث أن رفع رأسَه وسأل:

ـ عفوًا، هل الاسم الكريمُ منى أمْ جنى؟

ـ لا هذا ولا ذاك، ردّت الشابّة، إنّه حتّى.

ـ حتّى؟ كما في الأغنية التي تقول: «حتّى فساتيني التي أَهملتُها؟» سأل الموظّف وقد ارتسمتْ على شفتيْه ابتسامةٌ صغيرة.

ـ نعم، ومثل «حتّى أنتَ يا بروتوس!»

اتّسعت ابتسامةُ الموظّف من ردّها. ولمّا كانت هي مقدِّمة الطلب الوحيد في تلك اللحظة، فإنه لم يجد مانعًا من إكمال الحديث.

ـ ومثل ماذا أيضًا؟ سأل.

ـ ومثل «أكلتُ السمكةَ حتّى رأسَها،» قالتْها بنطقٍ واضحٍ، واضعةً فتحةً على حرف السين في «رأسَها.»

ـ أليس الصحيح أن تجرّي السينَ، لأنّ «حتّى» حرفُ جرّ، وحرفُ الجرّ يجرّ الجبلَ كما يقول النّحاةُ؟

ـ ألا تعلم، يا سيّدي الفاضل، أنّ الاختلاف على تفسير معنى «أكلتُ السمكةَ حتى رأسها» أجاز الرفعَ والنصبَ والجرّ؟ بهذا تميّزتْ «حتّى» في اللغة العربية.

زادت ابتسامةُ الموظف اتّساعًا وواصل الحديث:

ـ إذن هل سمّاكِ والداكِ اسمًا متميّزًا كحرف حتّى؟

ـ لا، ليس هذا هو السبب، قالت حتّى.

ـ إذن هل أبوكِ أستاذُ لغة عربية مولعٌ بالنحو؟

ـ لا، كان طبيبًا، ردّت الشابّة بهدوء، ولكنه كان عاشقًا للغة العربية.

ـ ما هو السبب إذنْ، إذا لم يكن عندك مانع؟ لقد زِدْتِ من فضولي.

تنهّدتْ حتّى ثم قالت:

ـ هناك عالمُ نحوٍ عربيّ اسمُه الفرّاء، أحبّ حتّى حبّاً شديدًا، إذ قضى زمنًا طويلاً وهو يَدْرسها. وعندما أدرك أنّه سيموت قبل أن يَشْبع من دراستها، قال مقولةً شهيرة: «أموتُ وفي نفسي شيءٌ من حتّى.» وفي قوله حزنُ عالِمٍ لم يُكْملْ بحثَه، وحسرةُ محبٍّ سيفارق محبوبتَه. أبي ـ رحمه الله ـ أبلغه الأطبّاءُ أنّ السرطان لن يُمْهله طويلاً، وكانت أمي في بداية الحمْل. وقد أدرك أبي أنّه سيموت قبل مجيء مولوده الأول، الذي قضى الكثيرَ من العمر ينتظره، فأوصى أمي بأن تسمّي المولودَ «حتّى،» أكان ذكرًا أمْ أنثى. فقد شَعَرَ أنّه، مثل الفراء، يموت وفي نفسه شيءٌ من شيءٍ أَحَبّه كثيرًا.

اختفت ابتسامةُ الموظّف، وعادت ملامحُ الجدّ إلى وجهه وقال:

ـ رحم اللهُ والدَكِ. أرجو ألاّ أكون أثقلتُ دمي عليك. أوراقُكِ كاملة. ادفعي الرسومَ عند المحاسب وعودي بعد الظهر لاستلام جواز السفر.

❖ ـ كاتب من فلسطين.